

تجديد الإسلام

رسالة الأزهر في القرن العشرين^(١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

بها ، ويرتفع كل منهم بنفسه ، فيكون مقور خُلُق في الحياة قبل أن يكون معلم علم في الحياة ، لينبث منهم مضاعفون النبوة يجذب النفوس بهم أنوى مما تجذبها ضلالات العصر ؛ فلما يحتاج الناس في هذا الزمن إلى العالم — وإن الكتب والعلوم لتعلم الدنيا — وإعما يحتاجون إلى ضمير العالم

وقد هجرت المدينة أن توجد هذا الضمير ، مع أن الإسلام في حقيقته ليس شيئاً إلا قانون هذا الضمير ، إذ هو دين قائم على أن الله لا ينظر من الإنسان إلى صورته ولكن إلى عمله ؛ فأقول ما ينبغي أن يحمله الأزهر من رسالته ضائر أهله

والناس خاضعون للمادة بقانون حياتهم ، وقانون آخر هو قانون القرن العشرين ... فهم من ثم في أشد الحاجة إلى أن يجدوا بينهم التسلط على المادة بقانون حياته ليروا بأعينهم القوى الدينية مثوبة ، ثم ليجدوا في هذا الإنسان أساس القدوة والاحتذاء فيتصلوا منه بقوتين : قوة التعليم وقوة التحويل . هذا هو سر الإسلام الأول الذي نفذ به من أمة إلى أمة ولم يتم له شيء بعده إذ كان يتخذ في الطبيعة الانسانية نفسها

ومن أخمس واجبات الأزهر في هذا القرن العشرين أن يعمل أول شيء لأقرار معنى الإسلام الصحيح في المسلمين أنفسهم ، فإن أكثرهم اليوم قد أصبحوا مسلمين بالنسب لا غير . . . وما منهم إلا من هو في حاجة إلى تجديد الإسلام . والحكومات الإسلامية عاجزة في هذا بل هي من أسباب هذا الشر ، لأن لها وجوداً سياسياً ووجوداً مدنياً . أما الأزهر فهو وحده الذي يصلح لأن تقوم عليه الحكومة في هذا الباب ؛ وهو وحده الذي يسمه ما تعجز عنه ؛ وأسباب نجاحه مهابة ثابتة إذ كان له بقوة التاريخ حكم الزعامة الإسلامية ، وكانت فيه عند المسلمين بقية الوحي على الأرض ، ثم كان هو صورة الزواج النفسى الإلهي المحض . يتبدأ أنه فرط في واجب هذه الزعامة وفقد القوة التي كان يحكم بها وهي قوة النثل الأعلى التي كانت تجعل الرجل من علمائه كما قلنا مرة : إنساناً تختيره للماني السامية تظهر فيه بأحلوب عملي فيكون في قومه ضرباً من التربية والتسليم بقاعدة منتزعة من مثالها مشروحة بهذا النثل نفسه . والمقيدة في سواد الناس بشير هذا النثل الأعلى

(الأزهر) ، هذه هي الكلمة التي لا يقابلها في خيال الأمة المصرية إلا كلمة (المهرم) . وفي كلنا الانفتحين بكن سر خفي من أسرار التاريخ التي تجعل بعض الكلمات ميراناً عقلياً للأمة ، ينسب مادة اللفظ فيها ، ولا يبقى منها إلا مادة النفس ، إذ تكون هذه الكلمات تمييزاً عن شيء ثابت ثبات الفكرة التي لا تتغير ، مستقر في الروح القومية استقراره في الزمن ، متجسم من معناه كأن الطبيعة قد أفردته بعادته دون ما يشاركه في هذه المادة ؛ فالجهر في الهرم الأكبر يكاد يكون في العقل زماناً لا حجراً ، وفقاً لجسماً ؛ والمكان في الأزهر ينبس فيه معنى المكان ، وينقلب إلى قوة عقلية ساحرة ، توجد في المنظور غير المنظور

وعندى أن الأزهر في زماننا هذا يكاد يكون تفسيراً جديداً للحدث : « مصر كناية الله في أرضه » ، فلهذه اليوم أسهم نافذة من أسهم الله يرى بها من أراد دينه بالسوء فيمسكها لدية ويرى بها للنصر ، ويجب أن يكون هذا المعنى أول معانيهم في هذا القرن العشرين الذي ابتلى بجملة عشرين قرناً من الجراءة على الأديان وإعالمها والاحاد فيها

أول شيء في رسالة الأزهر في القرن العشرين ، أن يكون أهله قوة إلهية ممددة للنصر ، مهابة للنضال ، ممددة للاصابة ، مقدرة في طبيعتها أحسن تقدير ؛ تُشمر الناس بالأطمئنان إلى حملها ، وتوحى إلى كل من يراها الإيمان الثابت بعناها ؛ ولن يأن لهم هذا إلا إذا انقلبوا إلى طبيعتهم الصحيحة ، فلا يكون العلم تحرفاً ولا مهنة ولا مكسبة ، ولا يكون في أوراق الكتب خيال (أوراق البك) . . . بل تظهر فهم العظمة الروحانية آمرة ناعية في المادة لا مأمودة منية

(١) لم تكلم في هذه المقالة عن اللغة والأدب وتفصيل علوم الأزهر لأن هذه هي مادة الأزهر . لا رسالته الجديدة في رأينا

هي أول مغلوب في صراع قوى الحياة

لقد اعتاد المسلمون من قديم أن يجعلوا أبصارهم إلى علماء الأزهر فيتبعمونهم ويتأسون بهم ويعتصمونهم الطاعة وينزلون على حكمهم ويطمئنون في سيرتهم للتفسير لمشكلات النفس، ويعرفون بهم معنى صغر الدنيا ومعنى كبر الأعمال المظيمة؛ وكان غنى العالم الديني شيئاً غير المال بل شيئاً أعظم من المال إذ كان — يجد حقيقة النبي في إجلال الناس لفقره كأنه ملك لا فقر. وكان زهده قوة جاذبة فيها الصلابة والشدّة والهيبة والسمو وفيها كل سلطان الخير والنشر لأن فيها كل انزاعات الاستقلالية؛ ويكاد الزهد الصحيح يكون هو وحده القوة التي تجمل علماء الدين حقائق مؤثرة عاملة في حياة الناس أغنيائهم وفقرائهم، لا حقائق متروكة لنفسها يوحش الناس منها أنها متروكة لنفسها

وعلماء الأزهر في الحقيقة هم قوانين نفسية نافذة على الشعب، وعملهم أريد على الناس من قوانين الحكومة، بل هم التصحيح لهذه القوانين إذا جرت الأمور على عكسها وأسبابها؛ فيجب عليهم أن يحفظوا وجودهم وأن يتناولوا الأمة من ناحية قلوبها وأرواحها، وأن يُمدّوا نلابيذهم في الأزهر كما يُمدون القوانين الدقيقة لا طلاباً يرتزقون بالهم!

أين صوت الأزهر وعمله في هذه الحياة المأمجة بما في السطح وما في القاع... وأين وحى هذه القوة التي ميثقتها أن تجعل النبوة كأنها شيء واقف في الحياة المصرية لا خبر تاريخي فيها؟

لقد أصبح إيمان المسلمين كأنه عادة الإيمان لا الإيمان نفسه، ورجع الإسلام في كتبه الفقهية وكأنه أديان مختلفة متناقضة لا دين واحد. فرسالة الأزهر أن يجدد عمل النبوة في الشعب، وأن ينقح عمل التاريخ في الكتب، وأن يبطل عمل الوثنية في الماديات، وأن يعطي الأمة دينها الواضح الصريح اليسر وقانونها العمل الذي فيه سعادتها وقوتها

ولا وسيلة إلى ذلك إلا أن يكون الأزهر جريئاً في قيادة الحركة الروحية الإسلامية، جريئاً في عمله لهذه القيادة، آخذاً بأسباب هذا العمل، ملجأ في طلب هذه الأسباب، مصراً

على هذا الطلب. وكل هذا يكون شيئاً إن لم يكن رجال الأزهر وطلبته أمثلة من الأمثلة القوية في الدين والخلق والصلابة لتبدأ الحالة النفسية فيهم، فأنها إن بدأت لا تنقف؛ والمثل الأعلى حاكم بطبيعته على الإنسانية، مطاع بحكمه فيها، محبوب بطاعتها له والمادة الطمّرة للدين والأخلاق لا تجدهما الأمة إلا في الأزهر، فعمل الأزهر أن يثبت أن فيه تلك المادة باظهار عملها لا بالصاق الورقة المكتوب فيها الاسم على الزجاج... .

ومن ثم يعكرون واجب الأزهر أن يطلب الأشراف على التعليم الإسلامي في المدارس وأن يدفع الحركة الدينية دفناً بوسائل مختلفة؛ أولها أن يحمل وزارة المعارف على إقامة فرض الصلاة في جميع مدارسها، من مدرسة حرية الفكر... فنارلاً؛ والأمة الإسلامية كلها تشدُّ رأى الأزهر في هذا. وإذا نحن استخرجنا التفسير العملي لهذه الآية الكرّعة: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» دلّتنا الآية بنفسها على كل تلك الوسائل، فما الحكمة هنا إلا السياسة الاجتماعية في العمل، وليست الموعظة الحسنة إلا الطريقة النفسية في الدعوة

العلماء ورثة الأنبياء؛ وليس النبي من الأنبياء إلا تاريخ شدايد وعين، ومجاهدة في هداية الناس، ومراغمة للوجود الفاسد، ومكابدة التصحيح لحالة النفسية للأمة. فهذا كله هو الذي يورث عن الأنبياء لا العلم وتعليمه فقط

وإذا قامت رسالة الأزهر على هذه الحقائق، وأصبح وجوده هو المعنى النتم للحكومة الممارت لها في ضبط الحياة النفسية للشعب وحياطيتها وأمنها ورفاهتها واستقرارها — انجهدت طبيعته إلى أداء رسالته الكبرى للقرن العشرين بمد أن يكون قد حقق الدرائع إلى هذه الرسالة من فتح باب الاجتهاد وتنقية التاريخ الفقهي وتهذيب الروح الإسلامي والسمو به عن الماني الكلاسيكية الجدلية السخيفة، ثم استخراج أسرار القرآن الكريم المكتتة فيه لهذه المصور الطبية الأخيرة؛ وبمد أن يكون قد اجتمعت فيه القوة التي تمسك الإسلام على سنته بين القديم والجديد، لا ينكره هذا ولا يغيره ذلك؛ وبمد أن يكون الأزهر قد استفاد على العالم العربي بكتبه ودعواته وبمبوعته من حاملي علمه ورسائله

يكون في التاريخ بأدق المعنى إلا أوروبا وأمريكا في هذا الزمن
المعنى إذا نحن عرفنا كيف نبلغ
أنا مستيقن أن فيلسوف الاسلام الذي سينتشر الدين على
يده في أوروبا وأمريكا لن يخرج إلا من الأزهر ، وما كان الأستاذ
الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله إلا أول التطور المنتهى الى
هذه الغاية ، وسيكون حمل فلاسفة الأزهر استخراج قانون السعادة
للك الأمم من آداب الاسلام وأعماله ثم مخاطبة الأمم بأفكارها
وعواطفها والانفصاء من ذلك إلى ضميرها الاجتماعي فان أول الدين
هناك أسلوبه الذي يظهر به

هذه هي رسالة الأزهر في القرن العشرين ويجب أن
يتحقق بوسائلها من الآن ؛ ومن وسائلها أن يُيمان بها لتكون
موتفاً عليه . وبحسن بالأزهر في سبيل ذلك أن يضم إليه كل
مفكر إسلامي ذي إلهام أو بحث دقيق أو إحاطة شاملة ؛ فلكون
له ألقاب علمية يمنحهم إياها وإن لم يتخرجوا فيه ثم يستعين
بمعلمهم وإلهامهم وآرائهم . وبهذه الألقاب يمتد الأزهر إلى حدود
فكرية بعيدة ويصبح أوسع في أثره على الحياة الاسلامية ويحقق
لنفسه المعنى الجامعي

وفي تلك السبيل يجب على الأزهر أن يختار أياً في كل
سنة يجمع فيها من المسلمين (قرش الاسلام) ليجد مادة النفقة
الراسخة في نشر دين الله . وليس على الأرض مسلم ولا مسلمة لا يبسط
يده ، فما يحتاج هذا التدبير لأكثر من إقراره وتنظيمه وإعلانه
في الامم الاسلامية وفوائدها الكبرى وخاصة موسم الحج .
وهذا العمل هو نفسه وسيلة من أقوى الوسائل في تنبيه
الشعور الاسلامي وتحقيق المآونة في نشر الدين وحياطته ، وعلى
أن تكون له نتائج اجتماعية لا موضع لتفصيلها ، وعلى أن يكون
(قرش الاسلام) مادة لأعمال إسلامية ذات بال وهو على أي
الأحوال صلة روحية تجمل الأزهر كأنه معطيه لكل مسلم
لا آخذة .

والخلاصة أن أول رسالة الأزهر في القرن العشرين اهتداء
الأزهر إلى حقيقة موضعه في القرن العشرين « وجاءك في هذه
الحق وموعظه وذكرى المؤمنين » .

سنة ١٣٢٠ قمرية

(طحا)

أما تلك الرسالة الكبرى فهي بث الدعوة الاسلامية في
أوروبا وأمريكا واليابان ، بلغات الأوربيين والأمريكيين واليابانيين
في أسنة أزهريه 'مرهفة مصقولة لها بيان' الأدب ووقفة العلم
واحاطة الفللفة ، وإلهام الشعر ، وبصيرة الحكمة ، وقدرة
العباسة ؛ أسنة أزهريه لا يوجد الآن منها لسان واحد في
الأزهر ، ولكنها لن توجد إلا في الأزهر ؛ ولا قيمة لرسالته في
القرن العشرين إذا هو لم يوجدها فتكون للكلمة عنه والحاملة
لرسالته . وما هذه البشائ التي قرر الأزهر ابتنائها إلى أوروبا إلا
أول تاريخ تلك الأسنة

إن الوسيلة التي نشرت الاسلام من قبل لم تكن أجنحة
للملائكة ولا كانت قوة من جهنم ؛ ولا تزال هي التي تنشره ،
فليس مستحيلاً ولا متعذراً أن يفوز هذا الدين أوروبا وأمريكا
واليابان كما غزا العالم القديم . ولم يكن السلاح من قبل إلا طريقة
لايجاد الاسلام في الأمة الفريسة عنه حتى إذا وُجدت تولى هو
الدعوة لنفسه بقوة التاموس العليبي القائم على أن الأصلح هو
الأبقي ، وانحازت اليه الانسانية لأنه قانون طبيعتها السليمة ،
ودين فطرتها القوية ، وقد ظل الامم ينتشر ولم يكن يحمله إلا
للتاجر كما كان ينتشر وحامله الجيش ؛ فليس علينا إلا تغيير
السلاح في هذا العصر وجعله سلاحاً من فلسفة الدين وأسرار
حكته . فهذا الدين كما قلنا في بعض كلامنا أعمال مفصلة على
النفس أدق تفصيل وأوقاف بمصلحتها ، فهو بمعنى الحياة في كل
عصر عقلها السمتلي الثابت المستقر تنظم به أحوال النفس
على ميزنة وبصيرة ، ويدعُ للحياة عقلها الممثل المتجدد
التغير تنظم به أحوال الطبيعة على قصد وهدى . وهذه هي
حقيقة الاسلام في أحسن معانيه لا يفنى عنه في ذلك دين آخر
ولا يؤدي تأديته في هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة كلنا
هو نبشع في الأرض لماني النور بازاء الشمس نبع النور في السماء
ليس على الأزهر إلا أن يوجد من الاسلام في تلك الأمم
ما يستمر ، ثم الاستمرار هو يوجد ما يثبت ، والثبات يوجد
ما يدوم . وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى هذا في قوله:
نضرت الله اسراء سمع مني شيئاً ببلغه كما سمعته ، فرب ما يبلغ أومى له
من سامع
أما والله إن هذا البليغ الذي هو أومى له من السامع لن